على هامش النقد :

خواطر متساوقة
فى النقد والادب والاخلاق
للأستاذ سيد قطب

كنت أعد مقالى للرسالة عن « مليم الأكبر » كتاب الأستاذ « عادل كامل » ، حينما وصل إلىّ منها العدد الأخير ، فقرأت فيه كلمة الأديب الفاضل « فوزى سليمان » الموجهة إلىّ فى باب البريد الأدبى عن الناقد بين الكتب والشخصيات. وقد رأيت فى هذه الكلمة ما يدعو إلى البيان المفيد . ولم أجد بأساً من تأخير الكتابة عن « مليم » . فهذا الشاب الفقير « مليم » قد صار من أغنياء الحرب كما يقول مؤلفه . وحسب أغنياء الحرب ما هم فيه من ثراء ، ولا ضير عليه حين يتأخر نصيبه من الأدب . بل لعله لا يحفل مطلقاً بهذا النصيب!!! ثم إنّ له لدينا حساباً عسيراً عن أخلاقه وأعماله وآرائه . ومن حقه علينا وقد أصبح من الأثرياء أن نفرغ لحسابه بما يناسب المقام !!!

* * *

يقول الأديب الفاضل :

« لاحظت فى سلسلة مقالاتك النقدية عن « عالم القصة » أنك تكرر فى كثير منها قولك : « إنك لا تعرف — ولم تر — شخوص أغلب من تتحدث عنهم . ويبدو هذا غريباً فى نظرى ، فالقصة — فى هذا اللون بالذات من ألوان الأدب — لا شك أن لشخصية الكاتب وحياته الأثر القوى فى إنتاجها ... »

ثم يقول :

« فلم لا تحاول أن تخرج من عزلتك ، وتتعرف إلى من تكتب عنهم . بل وتكوّن معهم صداقات روحيـــة . فإذا أمسكت بقلمك بعد ذلك لتتحدث عن إنتاج لهم جمت بين الصورة والأصل ، كما أنك ستخدم تاريخ الأدب المعاصر، فتترك للأجيال المقبلة صوراً حية قوية من حياة المفكرين والكتاب المعاصرين . »

* * *

وهذا كلام صحيح فى مجموعه ، وإن لم يكن ضرورياً فى كل حين وأنا قد قلت شيئاً منه فى مناسبات سابقة :

فمنـــذ اثنى عشر عاماً كنت أقدم الديوان الأول لزميلى وصديقى الشاعر « عبد العزيز عتيق » — وكنت وإياه ما نزال طالبين — فجاء فى مقدمتى هذه الفقرات :

« أعتقد أننى أحق إنسان بأن أكتب هذه المقدمة لديوان « عتيق » وأنه لو لم يطلب منى وضعها لتقدمت أطلبه منه . ذلك أنى قد أكون أعرف الناس بشخصيته ، وبالعوامل التى تختلج فى نفسه ، والظروف التى تحيط به ؛ وما كان هذا الشعر إلا صدى لهـذه المجموعة ، وصورة أخرى لهـا . ولقد قاسمته كثيراً من هذه المواطف التى سجّلها الديوان ؛ وشاركته كذلك بعض ظروفها . والذى لم أكن موافقاً عليه من ناحية نسجه ومنحاه ؛ كنت موافقاً على الظرف الذى انبعث عنه ، والعاطفة التى أملته

« وإنى لميال إلى اعتبار شخصية الشاعر جزءا من ديوانه ، — إن لم تكن هى كل ديوانه — فمعرفة الناقد بشخصية من ينقده أمر ضرورى له فى تحليله . وهو إذا لم يعرفها استعان على معرفتها بآثارها المكتوبة . فإذا قلت : إننى قد أكون أعرف الناس بشخصية صاحب هذا الشعر ، كان ذلك معادلاً للقول بأنى أحق إنسان بأن يقدمه للناس .

« وأنا اليوم حينما أريد أن أعرف صدق الشاعر فى التعبير عن شعوره — وهو عندى مناط الشاعرية — لا أجهد نفسى فى التحليل والتمحيص . وتخريج المعانى ومراجعة الأحاسيس . كلا ! فإن لدى صورتين حاضرتين : صورة صاحب الديوان وتصرفاته فى الحياة وأفكاره وخواطره ودراسته . . . الخ . وصورته الأخرى المخطوطة فى ديوانه . وما علىّ حين أشاء معرفة صدقه من كذبه ، إلا أن أوازن بين الصورتين ، فيمتاز المشوه والدخيل . وتتبين مواضع التزييف والمغالطة ، أو تستقيم الصورتان وتنعدم الفروق ... »

* * *

وأنا اليوم على هذا الرأى مع اختلاف فى التطبيق والتفسير. فالصدق الفنى — كما أفهمه اليوم — ليس من الضرورى أن يحقق الصدق الواقعى . وحسبه أن يبلغ صدق الإحساس بالحياة وصحة الشعور بالطبيعة ، وأن يعبِّر بعد هذا عن الخلجات المستسرة فى الضمير ، وإن لم يطابق تصرف الفنان الظاهر للعيان !

فهذه الصورة المستسرة هى الصـورة الفنية مترجمة إلى لغة التعبير

على أن العجز لسبب ما عن تحقيق الشىء فى عالم الواقع ، كثيراً ما يقود الفنان لتحقيق ذلك الشىء فى عالم الفنون . سواء أكان سبب العجز شخصياً أو كونياً . مثال ذلك شاعر أو قصاص مندفع بحكم بنيته أو وراثاته أو مزاجه إلى الارتكاس فى حمأة الشهوات ؛ ثم نجده يتغنى بالمثـــل الرفيعة أو يرسم شخصياته نماذج للترفع أو الصوفية . . .

لهذا الفنان عالمان : عالم الواقع الملموس ، وعالم الرغبات المكنونة . وعالمه الفنى هو هذا العالم الأخير . إنه ذو شخصية مزدوجة . نعلم ذلك من صـورة شخصه ، ومن صورة فنه . وليست إحداهما بكاذبة وهنا يكون للمعرفة الشخصية قيمتهـا فى تحليل هذا الازدواج !

والموانع الـكونية شبيهة بالموانع الشخصية . وصرعاها أكثر وأكثر . وما المدينة الفاضلة والطوبى المصرية وأمثالها إلا من صنع هذه الموانع الـكونية ، والرغبات الـكونية كذلك . فأنا حريص على أن أعتقد أن للـكون رغبات مضمرة فى التسامى المطلق تمثلها رغبات الأفراد الفانين !

* * *

ولست كذلك ممن يخشون غلبة الملابسات الشخصية على الأمانة الأدبية فى النقد — إذا أنا عرفت أشخاص المتقودين — ولا ممن يخشون اتهام بعض القراء لى بأن لهذه الملابسات دخلاً فى توجيه النقد ، تحت تأثير الصداقات والخصومات !

وقد وقفت قبل أحد عشر عاما كذلك ألقى محاضرة عن « وحى الأربعين » ديوان الأستاذ العقاد فى « رابطة الأدب الجديد » فبدأتها بهذا التمهيد :

« أود قبل أن أتحدث عن « وحى الأربعين » أن أعلن إليكم صداقتى لصاحب « وحى الأربعين » ! وأن هذه الصداقة شرط أساسى للدراسة والنقد — ولا سيما نقد الشعر ودراسته — فأنت لن تستطيع فهم الشاعر وتحليله حتى تتصل بقلبه وعقله ، ولن يتاح لك الاتصال بهما حتى تـكون صديقاً للشاعر ، وحتى يكون بينكما تواد وتعارف قديم .

« وربما جهد غيرى فى مثل هذا الموقف أن ينـكر صلاته بالرجل الذى يتحدث عنه ، أو ربما جهد أن يعلن إليكم أنه تخلص من صداقته ، ليخلص إليكم برأيه البرىء !

« أما أنا فلا أنـكر ! وأما أنا فلم أحاول التخلص من هذه الصداقة ؛ لا . بل إنى لأعلن إليكم أننى اتصلت بالأستاذ العقاد لأستوضحه بعض النقط ، ولأتأكد من بعض ما كنت فى شك منه .

« ولست أخشى من هذه الصداقة — على أشدها — أن تؤثر فى رأيى . لأن لى صداقة أخرى أقوى من هذه الصداقة . وهى صداقتى لضميرى . لا . بل صداقتى لشخصيتى ، وحرصى عليها أن تفنى فى أية شخصية أخرى ... »

* * *

وأنا اليوم بعد أحد عشر عاماً كما كنت يومذاك بفارق واحد. وهو أننى لم أعد أعنى اليوم — كما كنت أعنى يومذاك — بإعلان « صداقتى لشخصيتى وحرصى عليها أن تفنى فى أية شخصية أخرى ... »

إننى لم أعد أحرص اليوم على مقاومة الفناء فى الشخصيات الأخرى، لأننى عدت أكثر اطمئناناً لعدم الفناء ! وإنى لأعرف اليوم أن صيحتى يومذاك إنما كانت صيحة الخائف الذى يحدث نفسه فى الظلام ، وينفى عنها الأوهام ليشعر بالاطمئنان !!!

لقد كنت أتحدث يومها عن العقاد . وكانت شخصية العقاد هى الشخصية الوحيدة التى أخشى الفناء فيها — كنت أحس هذا بينى وبين نفسى — ولقد ظلت هذه الخشية إلى وقت قريب حينما بدأت أشعر أننى قد تخلصت . وأننى أنتفع بالعقاد ولـكننى لا أقلده . وأن لى طريقاً ألمح معالمه وأستشرف آفاقه . وأننى